الخمر؛ منافعها وأضرارها لدى عرب الجاهلية في ضوء كلام العرب والقرآن الكريم

WINE; BENEFITS AND HARMS IN LIGHT OR ARABIC POETERY AND HOLY QURAN

- د. أورنك زيب الأعظمي*

DOI: 10.29370/siarj/issue4ar9
Link: https://doi.org/10.29370/siarj/issue4ar9

ABSTRACT:
Arabs had different customs and traditions to recognize any one among them. They were very fond of generosity even they slaughtered their only animal to host their guest. They thought their guest as their 'lord' and considered them as their 'servant'. Hatim of Tayy tribe is an example for this hobby. Among the ways they took to serve their people and to be generous with them was wine which they took as much as they knew nothing about their belongings even they slaughtered other's animal and gave him price of it when required. Thus wine was a big source for their generosity. When the Qur'an was revealed it asked its followers to be generous they preferred to drink wine to do so because they used to do so in their pre-Islamic period. The Qur'an prohibited them from doing so pointing out its demerits regarding the society which is the base of everything. The coming article is a humble effort to point out this side of wine in the light of Arabic poetry and to indicate to what guidelines the Qur'an gave in this regard.

KEYWORDS: Quran, Wine, Poetry, pre-Islamic, society, prohibited
الكلمات المفتاحية: الخمر، الاشعار ، الجاهلية ، المجتمع ، الممنوع

المدخل في الموضوع:

القرآن كتاب سماوي نزل كدليل للبشر في مختلف مجالات حياتهم؛ في الأمور الدينية، في الشؤون الاجتماعية، في القضايا الاقتصادية وفي العلاقات بين المرء والمرء، وبين الدولة والدولة فكأنه دليل حاضر

* مدير تحرير "مجلة الهند" الفصلية وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي، الهند
البريدالالكترونى: zeb@yahoo.co.in11 aurang

في كل أمر وشأن يهدي البشر حيثما ضلّوا الطريق ولم يهتدوا إلى سواء السبيل. وكل ما ينطق القرآن ينطق عن جهة اجتماعية لا علمية فالبحث عن وجوه العلم في قضية يتناولها القرآن أمر غير ضروري بل إجبار على أفكاره وآرائه.

وفي هذه العجالة نتحدث عن إرشاد القرآن الكريم عن الخمر واعترافه بأهميتها في المجتمع البشري لاسيما المجتمع العربي فقال تعالى في غضون الحديث عن الإنفاق: يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو ---".

خلفيةهذهالآية:

قبل أن أتقدّم شيئا أودّ أن أتحدث عن أهمية الخمر في المجتمع العربي الجاهلي فالقرآن يتناول ما عم هذا المجتمع فيهدي أفراده إلى سواء السبيل في كل ما شاع وذاع، والخمر أحد التقاليد الشائعة فيهم.

فقد كانت الخمر عامة في المجتمع العربي الجاهلي عموم الماء خلال الطعام فلم يكن عربي إلا ويشربها أو يصنعها أو يتجرها وكانت تجارتها شائعة فيهم إلى حدّ أنهم كانوا يسمون بائع الخمر "تاجرا"[1]، ولذا فإن تنفّر أحدٌ عنها أو لم يشربها سموه حنيفا، ولم يكن عمر شربها محددا فيهم فكان أولادهم يشربون الخمر كما كان الشباب والشيوخ يشربونها وكانوا يذكرونها مفتخرين بعادتهم هذه فيقول عمرو بن كلثوم في قصيدته المعلقة:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا	ولا تبقي خمـــور الأندرينا
مشعشـعة كأن الحص فيها	إذاما المـاء خالطها سخينا

ويمضي قائلاً:

صددت الكأس عنا أم عمرو	وكان الكأس مجراها اليمينا
وكأس قد شـــــربتُ ببعلبكّ	وأخرى في دمشق وكاسرينا[2]

والحال أن عمرا كان ابن ست عشرة سنة حينما كتب هذه القصيدة فكأنه جعل يشرب الخمر قبل أن يبلغ الحلم.

ويقول طرفة بن العبد في معلقته:

وإن تبغني في حلقة القوم تلقني	وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد[3]

وقال:

متى تأتني أصبحك كأســـا روية	وإن كنت عنها غانيـــا فاغن وازدد[4]

وليس هذا فحسب بل كانوا يشربون في جماعة وبيدي قينة فيقول الشاعر المذكور أعلاه:

نداماي بيض كالنجـــــوم وقينة	تروح علينا بين برد ومجســـــــــــد
رحيب قطاب الجيب منها رقيقة	بجس الندامى بضة المتجـــــــــــــرد
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا	على رِسلها مطروفـــــــــة لم تشدّد[5]

وبالرغم من عموم هذه العادة في كل جلسة أو ندوة فهي كانت من أشدّ الدوافع وأهم البواعث على الجود والسخاء في مجتمعهم لاسيما في موسم الشتاء وفي أيام الجدب والسنين حينما كان العرب كلهم يعانون من ضغط شديد من قبل هذه الآفة السماوية وكاد أن يجرهم الجوع الأغبر إلى الهلاك والدمار الشامل ففي هذه الحالة الخطرة والحرجة كان أغنياء العرب وأسخياؤهم يشمرون عن ساقهم لصيانة إخوانهم عن أيدي الموت الظالمة. والطريقة التي كانوا يختاروها لهذا الهدف السامي كانت هي أنهم كانوا يشربون الخمر في مجلس من المجالس ولما غمرهم السكر أقبلوا إلى ناقة ظفروا بها فنحروها ونثروا لحمها على كل من نقّت عصا فير بطنه مؤدِين قيمتها مهما علت، واعتبروا هذا النوع من الجود أفضل شيء وأفخره لديهم فيقول حسان بن ثابت الأنصاري:

وإنا من القـــــــوم الذين إذا	أزم الشتاء مخالف الجـــدب
أعطى ذوي الأموال معسرهم	والضاربين بموطن الرعــــب[6]

وله ما يلي:

وإني لمعط لو وجـــــدت وقائل	لموقـــــد ناري ليلةَ الريح: أوقد
وإني لقوال لذي البثّ مرحبا	وأهـلًا إذاما جاء من غير مرصد
وإني ليدعوني الندى فأجيبه	وأضرب بيض العارض المتوقد[7]

وله أيضًا:

المطعمـــون إذا سنو	ن المحل تصبح جامــده

فمع النوامك في جفا	ن الخور تصبح جامده[8]

ويقول كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه:

أخو شتوات يعلـــــم الحي أنه	سيكثر ما في قــــــدره ويطيب

ويمضي قائلًا:

ولم يدع فتيــــــانًا كراما لميسر	إذا اشتدّ من ريح الشتاء هبوب
يبيت الندى يا أم عمرو ضجيعه	إذا لم يكن في المنقيات حلوب[9]

ويقول زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان المري:

أ ليس بفياض يداه غمامة	ثمال اليتامى في السنين محمّد[10]

وقال أيضًا يمدح هرم المري:

إذا السنة الشهبـاء بالناس أجحفت	ونال كرام المال في الجحـــــرة الأكل
رأيت ذوي الحاجــــات حول بيوتهم	قطينـــــــــــا بها، حتى إذا نبت البقل
هنالك إن يستخبلوا المـــــالَ يُخبلوا	وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا[11]

ويقول أمية بن أبي الصلت في شعر له كما يلي:

المطعمون الطعام في السنة الأز	مة والفاعلون للزكـــــــــــــوات[12]

فالبديهي أن هذه المناسبات كانت أشدّ مناسبة وأخطرها على المجتمع العربي فمن قام بالجود والسخاء فيها كان يعتبر أجود رجل وأسخاه وعلى هذا فكان الشعراء يمدحون من قام فيها بصرف الأموال على المعانين من هذه البلية السماوية، وكفى دليلاً على دعوانا هذه شعر الحسين بن مطير الأسدي الذي أطرى جوادا في أبياته التالية:

له يوم بؤس فيـــــه للناس	ويوم نعيـــــــــــــــم فيه

أبؤس	للناس أنعم
فيمطُر يوم الجـــود من كفه الندى	ويمّطُـــــــــر يوم البأس من كفه الدم
ولو أن يوم البأس خلّى عقـــــــابه	على الناس لم يصبــح على الأرض مجرم
ولو أن يوم الجـــــــــود خلّى يمينه	على الناس لم يصبح على الأرض معدم13

وليس هذا فحسب بل كانوا ينفقون الأموال بعدما شربوا كما قال عنترة بن معاوية بن شدّاد العبسي:

فإذا شـــــــــربت فإنني مستهلك	مالي وعرضـــــــــي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى	وكما علمت شمائلي وتكــرمي[14]

وعلى هذا فمن لم يكن يحضر هذه المجالس كانوا يعدّونه بخيلاً ضنينا ناحتين له كلمة خاصة ألا وهي "برم" فيقول مجنون ليلى:

ألا يا ليل إن ملّكْت فينا	خيارك فانظري لمن الخيار
ولا تستبـــــدلي مني دنيا	ولا برما إذا حب القتـــــار
يهرول في الصغير إذا رآه	وتعجـــــــزه ملمات كبار[15]

ويقول حجر بن خالد:

وإذا هلكت فلا تريدي عاجزا	غسًّا ولا برماً ولا معْـــزالا[16]

ويقول دريد بن الصمة في رثاء أخيه:

فإن يك عبـــد الله خلّى مكانه	فما كان وقّـــــافاً ولا طائش اليد
ولا برما إذا الريـــــاح تناوحت	برطب العضاه والهشيم المعضّد[17]

ويقول عربي جاهلي حينما سئل عن أبغض الرجال إليه:

"البرم اللئيم، المستخذي للخصيم، المبطان النهيم، العيس البكيم، الذي إن سئل منع، وإن هُدِّد خضع، وإن طلب جشع"[18].

فالخمر كان لها دور قيادي في إثارة البشر على الجود والسخاء في مختلف المناسبات لاسيما في الأوضاع الحرجة كالجدب والسنين.

الخمر تضر بخَلْق المرء وخُلُقه:

وبجانب هذه الفائدة الكبرى للمجتمع العربي فقد كانت الخمر وما شابهها توجه أنواعا من الضرر الفادح إلى العرب ومجتمعهم وكان العرب أنفسهم يعرفون هذه المضار خير معرفة ولذا فكانوا يمنعون أقاربهم وأدانيهم عن شربها أو إدمانها فمثلاً أن النعمان بن ثواب العبدي يوصي ابنه سعداً بهذا الشأن:

"يا بني إن كثرة الشراب تفسد القلب وتقلّل الكسب وتُجدّ اللعب فأبصر نديمك واحمِ حريمك وأعن غريمك"19.

ويقول عمر بن الخطّاب ﷺ: "ما الخمر صرفًا بأذهب للعقول من الطمع"[20].

ويصرح شاعر عربي عن أثر الخمر في العقول معتبرا إياها إثمًا:

شربت الإثم حتى ضل عقلي	كذاك الإثم تذهب بالعقول[21]

ومن ذهاب الخمر بعقول الناس ما يلي من قول المنخل اليشكري:

ولقد شربت من المدا	مة بالصغيـــر وبالكبير
وشربت بالخيـــل الإنا	ث وبالمطهمـــة الذكور
فإذا سكــــــرت فإنني	رب الخورنق والسدير
وإذا صحـــــوت فإنني	رب الشويهة والبعير[22]

ويقول حسان بن ثابت الأنصاري:

ونشربها فتتركنا ملوكًا	وأسدًا ما ينهنهنا اللقاء[23]

أي الخمر تذهب بعقل المرء فلا يقدر المرء بعد شربها على التمييز بين الصحيح والغلط.

ويقول عمرو بن كلثوم عما تفعل الخمر بالإنسان بعدما يذوقها:

تجور بذي اللبانة عن هواه	إذاما ذاقها حتى يليـــــنا[24]

أي الخمر تثني صاحب الحاجة عن حاجته.

ويقول طرفة بن العبد في معلقته مشيراً إلى تبذير ماله في هذا الأمر ونفيه من قبل أفراد أسرته:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي	وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي
إلى أن تحامتني العشـيرة كلُّها	وأفردت إفرادَ البعير المعبد[25]

فإنفاق المال فوق المستطاع مما لا يسيغه العقل ولا يصبر عليه الأهل والأقرباء ويعود نفعه ضررا على فاعله، ونظراً لهذا الأمر فقال زهير بن أبي سلمى يمدح حسن بن حذيفة بن بدر فيبرره عن هذا العيب:

أخي ثقة لا تَتلف الخمر مالَه	ولكنه قد يُهلك المـــــــالَ نائلُه
تراه، إذاما جئته، متهـــــــلّلاً	كأنك تعطيه الذي أنت سائله[26]

وبما أن الخمر تضر بالعقل فتذهله فعندما يشربها أحد يعرف بضنه بالمال فهو أيضا يجعل ينفق فقد جاء في المثل العربي السائر: الخمر تعطي من البخيل"[27].

وبالجملة فما تسببه الخمر باسم خير أو شر كله يعود شراً ولو أنه يبدو خيرا لوقت محدّد وهكذا فهي مفتاح كل نوع من الشر، وعلى هذا فيقول حكيم عرب الجاهلية أكثم بن صيفي: "الخمر مفتاح كل شر".[28]

كيف عالج القرآن الكريم هذه القضية:

ولما رأى الله تعالى خوض العرب في هذه الآفة منعهم عنها مشيرا إلى كدورتها فقال فيما يلي:

"يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون"[29].

فأشار إلى أن الخمر مثل الميسر والنصب والزلم وهي كلها رجس ولا يرتكبه إلا من يتبع الشيطان فمن يؤمن بالله على الأقل فليجتنبه.

ومن ثم أشار إلى كون الخمر سببا لوجود العداوة والبغضاء في البشر وهو شيء ذو خطورة في المجتمع البشري فقال تعالى:

"إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر"[30].

وقد أثبت العلوم الجديدة هذه الحقيقة فلما قرأها الدكتور كلينتون هردج بروفيسور علم الحياة في جامعة كولارك قام بإعداد البحث عن هذه القضية فأخذ أربعة كلاب وقام بتجربتها فأشربها الخمر وبعد أيام جعلت الكلاب يخاصم بعضها البعض بأشد مما كانوا يتخاصمون وبرزت فيها قساوة أشدّ من ذات قبل[31].

وذلك لأن شاربها يفقد من ميزات البشر ما يقدر به على التمييز بين الصحيح والغلط، الحق والباطل فيرتكب ما ينال من عزته وربما من عزة الآخرين وعلى هذا فمنع القرآن المؤمنين أن يحضروا المصلّى وهم سكارى فقال كما يلي:

"يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلوة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ---"[32].

وليس هذا فقط بل قد قرنها بأنواع من النجاسة[33].

فبالرغم من قلة المنافع الخلقية وكثرة المضار الاجتماعية إذا سأل أحدٌ عن اتخاذ الخمر وسيلة للإنفاق فهل يسمحه الله تعالى لها أم يمنعه عنها؟ الحق أنه تعالى يمنعه عنها مع الاعتراف إلى وجود بعض المنافع الموقّتة فيقول القرآن الكريم حينما سأل العرب رسولهم العربي عن اتخاذ الخمر وما شابهها وسيلة للإنفاق:

"يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو ----"[34].

ففي هذه الآية اسـ تخدم القرآن كلمة تتطلب منا أن نتوقّف لديها لثوان فنتفكّر في استخدامها لدى العرب وهي ستفيدنا في فهم معنى هذه الآية ومن ثم في فهم الهدف الأَصلي وراء نزول القرآن الكريم فالكلمة التي تتطلب منا التفكير فيها هي "الإثم".

فالإثم كلمة عربية لا تستخدم للضرر البدني بـ ل هي دائماً تستخدم للضرر الخلقي فيقول شاعر حماسي:

وأنت امرؤ إما ائتمنتك خاليا	فخنت وإما قلت قولًا بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيننا	بمنزلة بين الخيـــانة والإثم[35]

فعبر عن عدم الشهادة بالإثم وهذه سيئة خلقية.

ويقول الله عز وجل:

"فمن خاف من موصٍ جنفًا أو إثمًا فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم"[36].

فالجنف يعني التحيز بينما الإثم يعني التغشم، وهذا يتعلق بالمعاملة. وكذا اعتبر كتمان الشهادة إثمًا فقال:

"--- ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعلمون عليم"[37].

وكذا أعدّ الإثم مضاد البر فقال تعالى:

"---   وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب"38.

وهكذا اعتبر الشرك إثمًا عظيما فقال جل جلاله:

"--- ومن يشرك بالله فقد افترى إثمًا عظيما"[39].

ففي كافة الآيات اعتبر الإثم ما يضر بالأخلاق والمعاملات لا بالأبدان.

وعلى هذا فقد اعتبر الشاعر العربي الخمر إثمًا لأنها تضر بالأخلاق أكثر مما تضر بالأبدان فهو يقول:

شربت الإثم حتى ضل عقلي	كذاك الإثم تذهب بالعقول[40]

ويليقنا بهذه المناسبة أن نشير إلى معنى كلمة "العفو" لكي تتضح فلسفة الإنفاق في القرآن الكريم فالعفو يعني ما زاد على الحاجة فقال زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان المري:

هو الجواد الذي يعطيك نائلَه	عفوا ويظلَم أحيـــــانًا فيظلم
وإن أتاه خليـــــــل يوم مسئلة	يقول: لا غائب مالي ولا حرم[41]

فالعفو هو المال الذي زاد على الحاجة ولذا إذا ألح السائل على الطلب ولم يكن لديه ما يزيد على حاجته شعر بالسآمة من قبل السائل فيمنعه أو يدفعه وهذا الذي يسميه ظلما فسؤاله ظلم على المعطي كما أن دفع المعطي ظلم على السائل إلا أنه لا يبخل بما في يديه في أيام الشتاء حينما يعم البؤس ولذا سمى في البيت الثاني بـ"يوم مسئلة" فآنذاك يحل كل ما يمتلكه من غث أو ثمين لصاحب حاجة و"الخليل" هنا يعني "صاحب خلّة" أي فقر.

الخاتمة:

بدا من هذا الحديث الموجز أن الخمر كانت لها أهمية كبرى في المجتمع العربي وكان عرب الجاهلية يتخذونها وسيلة للجود والسخاء، ولكن لما جاء القرآن الكريم منع أتابعه عن اتخاذها حتى ولو وسيلة للجود والسخاء فإن ضررها أكبر من نفعها الاجتماعي. وبالجملة فخلص من هذه الدراسة الوجيزة:

1. أن القرآن لا يسمح الإنسان أن يشرب الخمر ولو لحسنة يريدها كالإنفاق في أيام السنين.
2. وأنه   يرجح المنافع على المضار فكل ما هو ضرره أكثر من نفعه حرام استخدامه.
3. وأن   محاسن الأخلاق هي التي يستهدفها القرآن في آياته. وبناء على هذا قال النبي صلّى الله عليه وسلّم في ذاته إنه بعث كمعلّم للأخلاق.
4. وأنما يتروج فينا هذه الأيام من عقد مجالس الرقص وما شابهها لجمع التبرعات للمعانين من البلايا السماوية ليس بصحيح.

5. وأن الإنفاق يكون مما زاد على الحاجة لا كل ما يمتلكه الإنسان.

المصادروالهوامش

[1] كتّاب شتى: المنجد في اللغة، دار المشرق، بيروت، 1973م، مادة: ت،ج، ر
[2] العلامة التبريزي: شرح القصائد العشر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م، ص 254-256
[3] المصدر نفسه، ص 98
[4] المصدر نفسه والصفحة ذاتها
[5] المصدر نفسه، ص 99-101
[6] ديوان سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري، مطبعة الإمام بشارع مسجد البنات بمصر، 1321ھ، ص 15
[7] المصدر نفسه، ص 28
[8] المصدر نفسه، ص 36
[9] عبد الخالق الشهير بابن الخواجة: مختارات شعراء العرب، المطبعة العامرة بشارع المغربلين، 1360ھديوان مختارات شعراء العرب، ص 29
[10] ديوان زهير بن أبي سلمى، دار بيروت للطباعة والنشر، 1979م، ص 23
[11] المصدر نفسه، ص 62
[12] بهجة عبد الغفور الحديثي: أمية بن أبي الصلت، حياته وشعره، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، 1991م، ص 165
[13] أبو تمام: ديوان الحماسة (شرح العلامة التبريزي)، تفاصيل المطبع لم تذكر، 271/2
[14] القصائد العشر، ص 234
[15] ديوان مجنون ليلى (شرح الدكتور يوسف فرحات)، دار الكتاب العربي، 1993م، ص 76
[16] ديوان الحماسة، 131/1
[17] ديوان دريد بن الصمة (جمع وتحقيق: محمد خير البقاعي)، دار قتيبة، دمشق، 1401ھ، ص 274
[18] أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت، 1933م، 21/1
[19] المصدر نفسه، 127/1
[20] المصدر نفسه، 446/1
[21] لم أجد اسم قائله ولا مصدره ولقد ضبطته على تفسير "تدبر قرآن" حينما كنت طالباً
[22] عمر الدسوقي: النابغة الذبياني، دار الفكر العربي، 1975م، ص 177
[23] ديوان سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري، ص 9
[24] شرح القصائد العشر، ص 255
[25] شرح القصائد العشر، ص 101-102
[26] ديوان زهير بن أبي سلمى، ص 68
[27] أبو الفضل أحمد بن محمد النيسافوري الميداني: مجمع الأمثال، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1961م، 342/1
[28] جمهرة خطب العرب، 137/1
[29] سورة المائدة: 90
[30] سورة المائدة: 91
[31] مجلة "الهلال" الأسبوعية الصادرة عن كولكاتا وقد صدرت طبعتها الجديدة من أكادمية أوترابراديش الأردوية في لكناؤ في 1988م،، 239/3

[32] سورة النساء: 42
[33] السورة نفسها: ما بعد الآية
[34] سورة البقرة: 219
[35] ديوان الحماسة، 15/2
[36] سورة البقرة: 182
[37] السورة نفسها: 283
[38] سورة المائدة: 2
[39] سورة النساء: 48
[40] أمين أحسن، الإصلاحي: تدبر قرآن، شركة تاج، دلهي، الطبعة الأولى، 1989م، 515/1
[41] ديوان زهير بن أبي سلمى، ص 91